المحاضرة 03: الإعجاز الصوتي (1) (التبدلات الصوتية)

سبق وذكرنا أنّ الإعجاز اللغوي هو العلم الذي يهتم بالمفردة من حيث شكلها ومضمونها وغايتها، وعرفنا أنّ المراد بالشكل هو مظهرها الصوتي من حيث مخارج الحروف وصفاتها وكل ما يتعلق بالجانب الصوتي للغة. ومنه فالإعجاز الصوتي هو الحديث عن الأصوات ودورها في كشف المعنى وإبرازه لكونها _الأصوات_ جزءا أساسيا في بناء اللغة التي عرّفها ابن جني بأنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم. فبالصوت تتشكل الكلمات ومنها تتألف الجمل والتراكيب.

وقد نظر اللغويون القدامى للصّوت بكونه مرادفا للحرف، وقد ذهب مذهبهم بعض من المحدثين أمّا البعض الآخر فقد فرّق بينهما بكون الصّوت هو الصّورة السّمعية التي تصلنا أمّا الحرف فهو الصّورة الكتابية النمطية. وبغض النظر عن هذا الإختلاف فإنّ ما يهمنا هنا هو النظر للصّوت بكونه جزءا أساسيا في بناء الكلمة وتجلي المعنى.

جاء القرآن الكريم في أعلى مراتب البلاغة والفصاحة، واختار أدّق الكلمات للتعبير عن الأحكام والممارسات "والكلمة في الحقيقة الوضعية إنّما هي صوت النفس"[1]. أي صوت النطق بها وهذا الصّوت هو الذي يعطيها معنى في التركيب.

جعل مصطفى صادق الرافعي الأصوات ثلاث وهي:[2]

1_ صوت النفس:

1 مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص181.

2 ينظر: المرجع نفسه، ص181.

وهو الصوت الموسيقي الذي يكون من تأليف النغم بالحروف ومخارجها وحركاتها ومواقع ذلك من تركيب الكلام ونظمه على طريقة متساوقة وعلى نضد متساو، بحيث تكون الكلمة كأنها خطوة للمعنى في سبيله إلى النفس.

2_ صوت العقل:

وهو الصوت المعنوي الذي يكون من لطائف التركيب في جملة الكلام، ومن الوجوه البيانية التي يداور بها المعنى، لا يخطئ طريق النفس من أي الجهات انتحى إليه.

3_ صوت الحسّ:

وهو أبلغهن شأنا، لا يكون إلا من دقة التصوّر المعنوي والإبداع في تلوين الخطاب، ومجاذبة النفس مرة وموادعتها مرة. وهو يبرز في وجوه البيان وطرائف المعاني. وهذا النوع من الأصوات انفرد به القرآن الكريم وكان روح الإعجاز فيه لكماله اللغوي. فلا يمكن لأي لغة أن تصور إحساسا كاملا وأن تؤثر مبلغ تأثير القرآن.

الإعجاز الصوتي يتجلى في العديد من المظاهر الصوتية التي تقرّب المعنى وتعكسه، منها ماهو متمثل في التبدلات الصوتية "ويدخل في باب التبدلات الصوتية في اللغة العربية ظاهرتان لغويتان هما الإبدال والقلب"[1]. فالإبدال والقلب من المظاهر التي تعكس الإعجاز الصوتي من خلال بناء الكلمات وما جرى عليها من تغيير للأصوات المكونة لها.

1- الإبدال:

ويراد به "إقامة حرف مكان حرف في بعض الكلمات مع بقاء الحروف الأخرى فتكون هذه الكلمات مشتركة في حرفين مثلا وأيدل الحرف الثالث في إحداها بحرف آخر قريب في المخرج وقد يكون بعيدا"[1]. فهو تبديل لحرف مكان آخر في المفردة، وقد يكون قريبا المخرج أو بعيدا على حسب السياق الواردة فيه الكلمة، كما تتحكم فيه الغاية منه -الإبدال- فإمّا أن يكون حتمية أو من أجل الإيقاع الصوتي الناتج عنه، أو استحسانا.

وقد زخر القرآن الكريم بضروب كثيرة منه، ومن أمثلة الإعجاز الصّوتي عن طريق الإبدال ما نجده في قوله تعالى: "لست عليهم بمصيطر" فهنا تمّ إبدال حرف السين بحرف الصّاد "وتبدو المناسبة واضحة بين طبيعة الصوت المفخم والموقف التي تدل عليه الآية، فالخطاب موجه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، أي: لست يا رسول الله بمتسلط عليهم تجبرهم على الإيمان أو تكرههم عليه، وهي دعوة من الله إلى نبذ التجبر على الناس وأمرهم بالقوة، لأن الهداية لا تكون إلا من عند الله، فلما كانت السيطرة تدل على التجبر والقوة جاءت اللفظة بالصّاد المفخمة المجسّدة للموقف بدلا من السين المهموسة التي تدل في الغالب على اللين والهمس"[2].

وهو نفس الأمر في قوله تعالى "وزادكم في الخَلق بَصَطة"الأعراف 69. فاستبدلت السين صادا، وقد ذهب المفسرون إلى أن معنى بصطة الامتداد والطول، في حين رأى آخرون أن الصاد جاءت بعد الطاء فهي تدل على الطول في الخلق وعظمة الجسم. ويبدو من استخدام الصاد بدل السين قصد تشخيص الامتداد في الطول لذلك نجد الصاد المفخم دالا على الجسم الضخم[3].

---

1 المرجع السابق، ص66.

2محمد الحسن مختار بلال، ملامح من الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، المجلة العلمية لجامعة الإمام المهدي، ع11، يونيو 2018، ص54

3 ينظر: دفة بلقاسم، نماذج من الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، جوان 2009، ص15.

وقد تستعمل كلمة في موضع ثمّ تستعمل في موضع آخر مع إبدال حرف فيها، ومثاله ما جاء في قوله **تعالى " إنّ أوّل بيت وضع للنّاس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على النّاس حج البيت من استطاع إليه سبيلا" آل عمران96 _97.** وقال في موضع آخر **"وهو الذي كفّ أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكّة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا" الفتح 24.** فجاءت في سورة آل عمران بكّة أمّا في سورة الفتح مكّة، وقد ذهب المفسرون أنّ سبب مجيئها بالباء أنّها وردت في آية الحج، وبكّة من البكّ وهو الزّحام ومعروف أنّ في الحج يزدحم النّاس للطواف والسّعي.

2- القلب:

يراد به "تبدل صوتي يقع على الكلمة بابدال مواقع الأصوات أو الحروف فيها مثل يئس وأيس وجذب وجبذ وهو أقل من الإبدال عددا وأندر وقوها وأقلّ شأنا في مباحث اللغة"[1]. فهو تغيير لمواضع الحروف بين كلمتين أو أكثر، وهي من التبدلات الصوتية التي قد نجد أثرها في الألفاظ العربية.

أمّا عن أمثلتها في القرآن الكريم فهي غير موجودة على حدّ قول جلال الدين السيوطي فبعد تعريفه ذكر أنّه مصنف من قبل علماء اللغة لكن في القرآن الكريم لا أثر له، "... وليس في القرآن شيء من هذا فيما أظنّ"[2].

1 محمد المبارك، فقه اللغة وخصائص العربية دراسة تحليلية مقارنة للكلمة العربية وعرض لمنهج العربية الأصيل في التجديد والتوليد، ص68.

2 عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، شر: محمد أحمد جاد المولى وآخرون، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، 1986، ص476.